ألعز .. والمعزى

هناك كما تعلمون عربي ابن أجانب وعربي ابن عرب. حين يضيق ابن الاجانب بما يكتنفه من شؤون ذات شأن فانه يتشبث بأستار ثقافته الاجنبية ليحافظ على توازنه. فتلتقط اصابعه مباشرة وبلا مقدمات حكمة بروميثيوس والنار المسروقة، وصخرة سيزيفوس، وكلمات هملت، وغودو الذي لا يأتي. ولا يعف محسوبكم ايضا عن العزاء القادم من هذه الحكم،الا انه، احيانا، يكتشف انه مهما يدر ومهما يلف، فانه يعود دفعة واحدة الى حقيقة كونه عربيا ابن عرب، وآنذاك لا يجد العزاء الا في حكمة خرجت قديما ولتوها من مقلع الحياة والتجربة المحلية، والمحلية جدا، فيصيح بلا صوت: "مكذا الدنيا يا عمي .. ناس عز وناس معزى".. والمعنى واضح.

ويصبح المعنى اكثر وضوحا حين تكون مسألة التسلح العربي والاسرائيلي هي موضوع البحث.

فاسرائيل المدججة بالسلاح حتى اسنانها " كما يقولون بالعبرية" كانت دائما موضع "شفقة" عالمية مزمنة. واسرائيل التي انتصرت في جميع حروبها، العدوانية اشكره خبر، ظلت دائما موضع "شفقة" عالمية مزمنة. والتغيرات الطفيفة التي طفت على السطح من حين لحين " بعد الحرب اللبنانية مثلا، او في غمرة الانتفاضة " لم

تلبث ان تضاءلت الى جانب تلك الشفقة المزمنة.

وليس هذا الواقع قضاء وقدرا. انه إفراز موضوعي لميزان دولي ما زالت كفته الراجحة هي كفة القوى ذات المصلحة التاريخية في اسرائيل على صورتها الحالية، والموتى وحدهم هم الذين يتوهمون امكانية العدل لدى هذه القوى في تعاملها مع العرب ومع اسرائيل . فهي ترى في اسرائيل اداة ناجعة جدا في بلبلة المسيرة العربية على طريق التكامل الاقتصادي والسياسي، عبورا الى حلم الوحدة القديم - الجديد .

إن اسرائيل لا تشكل خطرا استراتيجيا على "امبراطوريات" العالم الراهنة، فليشتد ساعدها اذن، بحيث تتمكن من عرقلة الممكن الاستراتيجي العربي بقيام دولة كبرى ذات مؤهلات مادية وبشرية غير محدودة، من شأنها اضعاف امبراطوريات ما بعد الحرب العالمية الثانية او الحد من طموحاتها ولجم مشاريعها، في احسن حال.

وعليه فان القوى الاورو-امريكية معنية باسرائيل قوية، وهي معنية بعدم تحقيق توازن استراتيجي، ليس بين اسرائيل واية دولة عربية فحسب، بل بينها وبين الدول العربية مجتمعه.

من هنا نفهم موقف الكونغرس الاميركي السلبي من تسليح اية دولة عربية، حتى حين تكون السعودية هي الدولة المعنية. ومن هنا نفهم "التسامح" الفرنسي مع اسرائيل حين اختطفت، "كأنما اختطفت؟" زوارق الصواريخ من ميناء فرنسي. ومخططات طائرة الميراج.

ومن هنا نفهم "جنون" بريطانيا الجديد ازاء صفقة تكنولوجية عادية تعقدها بعض الشركات مع العراق.

ومن هنا نفهم الهستيريا الاميركية ضد ليبيا، والتي بلغت درجة

العدوان العسكري المباشر.

ومن هنا نفهم التهديد الغربي الديموغرافي باكراه يهود الاتحاد السوفييتي على الاستيطان في بلادنا، تحت غطاء حقوق الانسان، ظاهرا، وبهدف باطني هو تشديد الضغط على العرب باتجاه الشرق، والتلويح لهم بأن "يلزموا حدهم" والا !!

أكثر من مصدر عالمي مطلع يؤكد ان اسرائيل تملك اسلحة نووية وكيماوية وتقليدية بمقادير رهيبة، ومع ذلك فان اسرائيل التي رفضت التوقيع على الاتفاقيات الدولية لحظر السلاح النووي، لم تلق من النقد شيئا يذكر ازاء الهجمة الحيوانية التي يتعرض لها العراق اليوم، رغم اعلانه المتكرر انه لن يستعمل السلاح الا للاغراض الدفاعية، وانه على استعداد لاتلاف اسلحته الكيماوية انا وافقت اسرائيل على اتلاف اسلحتها النووية.

صحيح ان العالم يتغير باستمرار، وللارقى دائما. وصحيح ان التراجعات التي تحدث من حين لاخر، في هذه المنطقة او تلك، تظل في اطار حركة التاريخ اقل شأنا من منجزات الانسانية، غير ان حكاية الذئب والحمل الذي يعكر عليه ماءه، على سذاجتها الظاهرية، ما زالت هي "الطرفة" العبثية الاشد شبها بالمواقف السياسية الدولية السائدة، والاكثر التصاقا بواقع الحال في التعامل الدولي مع القضايا العربية.

لقد شاع في الاونة الاخيرة تعريف السلاح الكيماوي بأنه "قنبلة الفقراء النووية"، ولا يسعنا الا ان نرفض هذا التعريف "الخبيث". فالحقيقة ان بعض الدول التي يدور الحديث عن امتلاكها القنبلة النووية " ومنها اسرائيل وباكستان والهند" لا يمكن اعتبارها دولا غنية بأية حال من الاحوال، ان لم نقل انها دول "مشلحة" لشدة فقرها.

ونرى في هذا التعريف محاولة لصرف الانظار عن الحقيقة القائلة بأن الدول المقتدرة وفي مقدمتها الولايات المتحدة الامريكية واتباعها في الغرب كانت وما زالت معنية بتوفير السلاح النووي للدول التي تدور في فلكها وتعمل في خدمتها شرطيا بكرباج نووي يلوح به متى يشاء في وجه كل شعب او حكومة او حركة تحرر تجرؤ على عصيان الاوامر العليا الصادرة من مكاتب اجهزة المخابرات الغربية وشركات الاحتكارات صاحبة المصلحة الاقتصادية في تكريس خريطة العالم السياسية على النحو القائم: تابع ومتبوع، دائن ومدين، مخيف وخائف، مانح ومانع من جهة، ومتسول متوسل من الجهة الاخرى ..

نحن لسنا مع السلاح النووي او الكيميائي او البكتريولوجي او اي سلاح آخر.

نحن لسنا مع السلاح .. نحن مع السلام .. ونحن على قناعة من ان السلام لا يمكن ان يتحقق بين قوي وضعيف .. ولا يمكن ان يتحقق الا بين الاكفاء، وكنا نتمنى ان يكون التكافؤ سلبيا، اي خاليا من ادوات القتل ووسائل الهلاك والدمار، بيد اننا لا نملك ما نحقق به امانينا سوى محاولتنا الدائبة لتحقيق التوازن بأي شكل من الاشكال، سلبا وايجابا.

ومن حقنا ادانة القوى الدولية التي اوجدت بأنانيتها السافلة مثل هذا الوضع ذلك اننا نؤثر السلام لانفسنا، لأطفالنا وللاجيال القادمة خارج ميزان الرعب. فكل قنبلة وكل قذيفة وكل رصاصة يتم اقتطاع نفقاتها من قوتنا ومن حليب اطفالنا ومن هدوء بالنا.

«عبير» حزيران ١٩٩٠